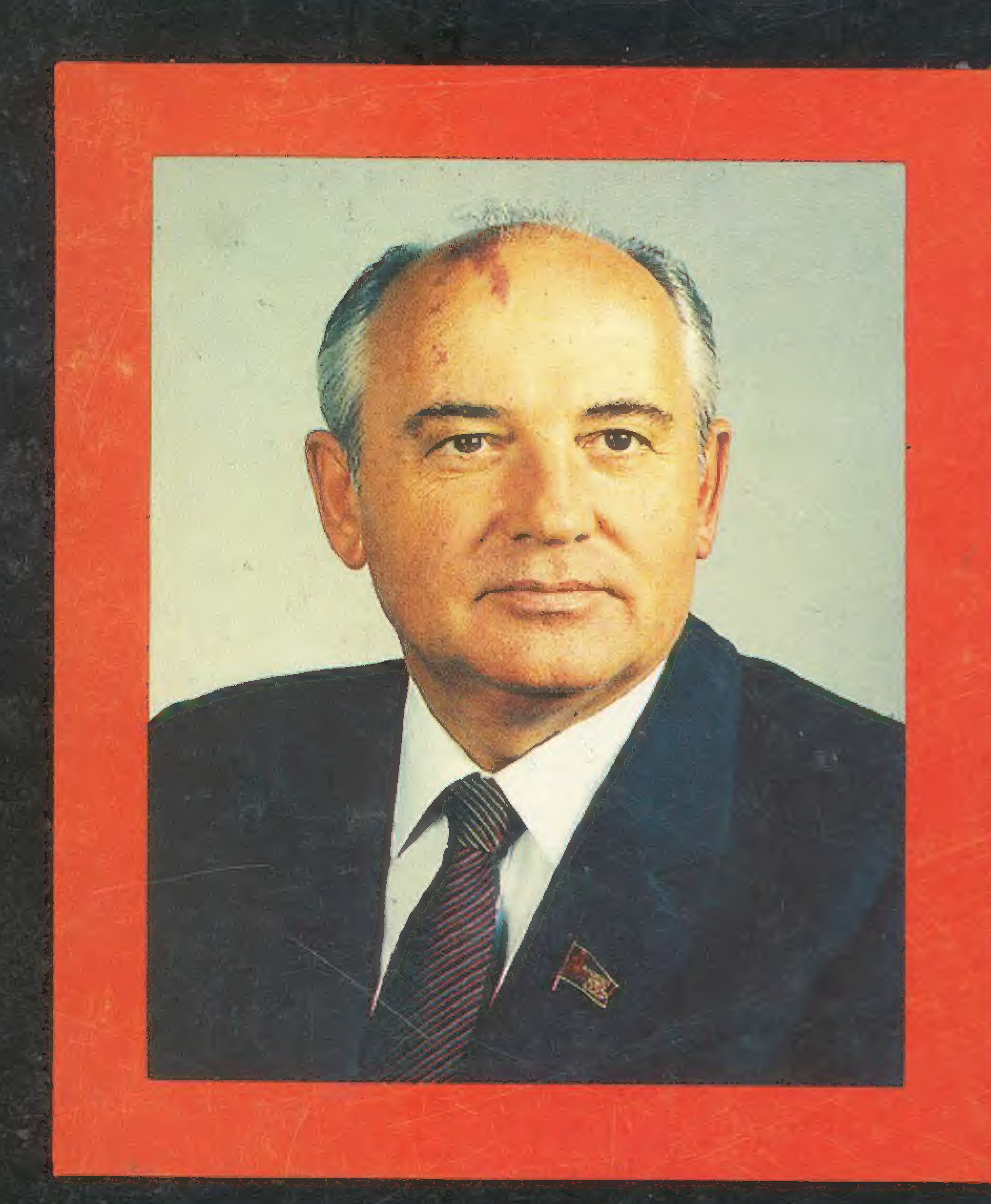
ميخائيل جورباتشوف

البيريسترويكا



تقديم

بقلم د. حازم الببلاوى

دار الشروق

البيريسترويكا

ميخائيل جورباتشوف

تقـديـم

بقلم د . حـازم الببلاوى

دار الشروق

هذا كتاب هام . ليس فقط لأن المؤلف هو الرجل الأول فى إحدى الدولتين العظميين (الاتحاد السوفيتى) ، بل لأنه يناقش ـ وبصراحة كبيرة ـ أسس النظام الذى يستمد منه شرعيته . ولا تقتصر أهمية هذا الكتاب على ما يمكن أن ينشأ عنه من تغيير فى الاتحاد السوفيتى ذاته ، بل إن آثاره ـ فيما لو قدر لأفكاره النجاح ـ لابد وأن تترك بصمات هامة على عديد من الدول فضلا عما يمكن أن يترتب عليها من تعديلات فى شكل وطبيعة العلاقات الدولية . فالاتحاد السوفيتى ـ فى نهاية القرن العشرين ـ بما يمثله من حجم اقتصادى وبوجه خاص من قوة عسكرية وتأثير ثقافى ومذهبى لا يكاد يعادله فى التاريخ الحديث سوى الإمبراطورية البريطانية فى أوج عظمتها .[1]

وقد نشر هذا الكتاب أولا بالإنجليزية خارج الاتحاد السوفيتى ثم ترجم إلى مختلف اللغات الأجنبية وأثار العديد من التعليقات ، وفى نفس الوقت فإن الحديث لايتوقف داخل الاتحاد السوفيتى عن « التغيير » ، كما تطرح أهم القضايا التى يثيرها الكتاب وتتناولها مختلف وسائل الإعلام ومنابر الحزب وحلقات المناقشة . وقد آن الأوان لأن يلتقى القارئ العربى بأفكار جورباتشوف عن « إعادة البناء » أو « البيريسترويكا » كما فى التعبير الروسى .

ويتناول الكتاب ـ كما يشير عنوانه ـ الدعوة إلى التغيير وانتهاج سبل جديدة فى التفكير . وهى دعوة إلى التغيير الشامل فى السياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية والحياة الثقافية .. الخ . ،وبعبارة أخرى هى دعوة لإعادة النظر فى مختلف جوانب الحياة الاجتماعية داخليا وخارجيا .

---

(١) انظر فى هذا الكاتب الأمريكى الماركسى *C. Wright Mills*
***The Marxists**, Pelican Books, 1963, P. 33*

ولعل السؤال الأول الذى يطرح نفسه حول هذا الكتاب هو التساؤل حول طبيعة البحث ، هل هو « تجديد » فى النظرية أم مجرد تطوير « للمارسة » ؟.

والحق أن قضية « النظرية » و « التطبيق » قد احتلت دائما مكانا متميزا فى الفكر الماركسى . وإذا كان ماركس قد حاول ان يقدم دعوته إلى الاشتراكية ـ على عكس من سبقه من الاشتراكيين ـ على أساس علمى (الاشتراكية العلمية) فإنه قد حرص فى نفس الوقت على أن يفرد مكانا رئيسيا وحاسما للفعل أو الممارسة Praxis بالمقارنة بالفكر أو الفلسفة . فقد « اقتصر الفلاسفة فى السابق على **تفسير** العالم بأشكال مختلفة ، والمطلوب الآن هو **تغييره**».(٢) فالماركسية ـ وخاصة عند ماركس الشاب ـ كانت تعنى انتهاء الفلسفة بتحققها عمليا . « فوحدة النظرية والتطبيق » هى إحدى العبارات الماركسية (٣) . والمقصود بطبيعة الأحوال هو التطبيق أو الممارسة المستندة إلى الملاحظة والدراسة والتحليل . فأهم مايميز الماركسية هو أنها تستند إلى نظرية شاملة لتطور المجتمعات ، ولكنها على خلاف غيرها من المدارس الفكرية ، لاتفصل بين النظرية والممارسة بل تدعو إلى التفاعل المستمر بينهما . وقد كان ماركس ـ وهو كاتب غزير الانتاج ـ دائم المشاركة فى الأحداث والتعليق عليها ، وقد تناولت كتاباته التعليق على أحداث الساعة والمواقف الهامة فى عصره . وهكذا فإنه عندما يأتى جورباتشوف ويقدم أفكاره عن تغيير المجتمع مطالبا بالأخذ ببرنامج جديد فى الفكر والممارسة ، فإنه يتبع فى هذا منهجا ماركسيا أصيلا ولايمثل خروجا عن مقتضيات هذا المنهج بقدر ما يعتبر إحياء له .

ويبدو مع ذلك أن دعوة جورباتشوف تستند بشكل أوضح إلى التقاليد التى أرساها لينين ، متابعا فى ذلك تراثا ثوريا روسيا قحا . فجورباتشوف يتحدث فى نهاية الأمر عن تجربة اشتراكية محددة وكما طبقت فى الاتحاد السوفيتى ولايتناول ـ إلا لماما ـ الحديث عن الاشتراكية بشكلها المجرد . ولجورباتشوف فى هذا قدوة ومثلا فى لينين ليس فقط باعتباره رجل سياسة وممارسة وإنما باعتباره سياسيا روسيا نابعا من البيئة الروسية ممثلا لآمالها ومقدرا لحدودها . لقد « بقيت أعمال لينين ومثله عن الاشتراكية ـ بقيت بالنسبة لنا معينا لاينضب للفكر الابداعى

(٢) *"The Philosophers have only **interpreted** the world in various ways; the point, however, is **to change it**". Karl Marx, **Theses on Feuerbach**; in, Karl Marx and Frederick Engels, **Selected Works**, Vol. II, Moscow, 1955, P. 404.*

(٣) *Wright Mills, **op. cit.** P. 33*

الجدلى ، والاثراء النظرى والحصافة السياسية .. ان لينين يعيش فى عقول ملايين الناس وأفئدتها. وينمو الاهتمام بتراث لينين والتعطش إلى معرفته على نطاق أوسع فى كتاباته الأصلية مع تراكم الظواهر السلبية فى المجتمع .. واليوم يوجد لدينا فهم أفضل لمؤلفات لينين الأخيرة ، التى كانت فى جوهرها وصيته السياسية .. لقد رأى أن الاشتراكية تواجه مشاكل هائلة ، وأن عليها أن تكافح بقدر كبير من أجل ما عجزت الثورة البورجوازية عن تحقيقه . ومن ثم استخدم أساليب لم تكن تبدو جوهرية بالنسبة للاشتراكية نفسها ، أو على الأقل ، اختلفت فى بعض الوجوه عن بعض الأفكار الكلاسيكية المقبولة بشكل عام للتطور الاشتراكى ، والشىء المهم أن نترجم ذلك إلى لغة الحياة اليومية » (جورباتشوف) .

ورغم ان لينين لم يكن منظرا على النحو الذى كان عليه ماركس ، فإنه لاينبغى أن ننسى أيضا أن عبقريته وقدرته على استلهام النظرية لتطويع الواقع هى التى مكنته أن يؤسس أول دولة اشتراكية ماركسية فى العالم . ولولا لينين وقدرته الفائقة على اختيار المواقف المناسبة ـ أو بعبارة أخرى لولا ممارساته كرجل سياسة ـ لربما ظلت الماركسية تيارا فلسفيا يدرس فى الجامعات مع فلسفات هيجل وكانت ، أو ضمن رواد علم الاجتماع الحديث يدرس فيه ماركس مع زمرة من المفكرين مثل أوجست كونت ومنتسكيو وتوكوفيل وديركايم .. ولكن لينين ـ ورفاقه ـ لم يقتصروا على البحث والدرس ، وإنما انخرطوا فى خضم الحياة واتخذوا مواقف واختلفوا أحيانا مع المنظرين من أجل الحياة ، فقامت أول دولة اشتراكية . ولم تعد الماركسية مجرد فكرة ، وإنما حياة ، وبالتالى يرد عليها مايرد على الحياة من تطور وتغيير.

وينبغى أن نأخذ حرص جورباتشوف على تأكيد شرعية أفكاره بالاستناد إلى لينين مأخذا جادا ، لأنه يعطى دلالات على المدى البعيد الذى يمكن أن يصل إليه فى تطوير الأفكار والممارسات . لقد كان اهتمام لينين بالممارسة والتطبيق والرضوخ لمقتضيات الحاجة سمة رئيسية فى شخصيته وتاريخ كفاحه . كما كان ارتباطه بالماركسية ارتباطا عميقا وليس تقليدا شكليا مما سمح له بالتحرر والقدرة على تطويرها دون الاخلال بجوهرها . ولذلك لم يكن غريبا أن يؤكد فى جرأة أن البرنامج الذى يدعو إليه « لايعتبر نظرية ماركس نظرية كاملة أو كلا غير قابل للتغيير ، وإنما نعتقد على العكس بأن هذه النظرية قد أرست قواعد العلم ، وهو علم يحتاج إلى جهود الاشتراكيين لتطويره فى كافة الاتجاهات إذا أرادوا ألا تجرفهم الحياة . وإننا نعتقد بوجه خاص

أن الاشتراكيين الروس مدعوون لتقديم تطوير مستقل لهذه النظرية » . [٤] ولم يتردد لينين إزاء تطور الأحداث وظهور عوامل جديدة فى قبول حلول جريئة أو الأخذ بسياسات خاصة كثيرا ما تعارضت مع ما استقر فى الأذهان . من هذا مثلا قبوله بشروط صلح برست ـ ليتوفسك مع ألمانيا فى مارس ١٩١٨ . فبعد مفاوضات طويلة ومتعثرة حاول فيها الجانب السوفيتى المماطلة وعدم التوقيع على شىء ، شنت الجيوش الألمانية هجوما شاملا على الجبهة الروسية مما دعا الروس للمطالبة بإعادة المفاوضات . فكان أن عرض الجانب الألمانى شروطه فى شكل إنذار للقبول أو الرفض خلال ثلاثة أيام . وازاء ضعف الجبهة الروسية طالب لينين بالموافقة على الشروط الألمانية والتى وصفها نفسه بأنها « مهينة وقذرة » ، وهدد بالاستقالة إن لم تقبل هذه المعاهدة . وقد كان على روسيا السوفيتية أن تتنازل بمقتضى هذه المعاهدة عن أوكرانيا فضلا عن أراضيها فى بولندا والبلطيق . وقد صدق عليها مؤتمر الحزب فى ٣ مارس ١٩١٨ تحت ضغط لينين ، ولم يتم إلغاء هذه المعاهدة إلا بعد استسلام ألمانيا فى نوفبر من نفس السنة . وهنا نجد أن هذا التراجع خطوة كان لازما من أجل تعزيز سلطة النظام الاشتراكى الجديد والتقدم بعد ذلك خطوات ، أو كما يقول جورباتشوف بأن دعوة لينين للسلام « لأنه كان يسترشد بالمصالح الحيوية ، لا العاجلة ، مصالح الطبقة العاملة فى مجموعها ، والثورة ومستقبل الاشتراكية . ولحماية هذه المصالح ، احتاجت البلاد إلى التقاط الانفاس قبل أن تتقدم إلى الأمام . وأدرك قليلون ذلك فى هذا الوقت . وكان من السهل فيما بعد وفقط أن نقول بثقة وبوضوح أن لينين كان على صواب . وكان على صواب بالفعل ، لأنه كان يتطلع بعيدا ، ولم يضع ما هو مؤقت فوق ماهو جوهرى . وهكذا أنقذت الثورة » .

وبالمثل فإن لينين لم يتردد بعد انتهاء الحرب الأهلية وحروب التدخل فى الأخذ « بالسياسة الاقتصادية الجديدة » NEP وما انتهت إليه من احياء السوق وترك الأسعار لقوى العرض والطلب فى عدد من السلع الاستهلاكية . وقد نجحت هذه السياسة بالفعل فى ١٩٢٤ فى توفير السلع الاستهلاكية وخاصة الغذاء من الريف وتوفيره للمدن فى وقت كان فيه أهل المدن فى حاجة ماسة إلى مثل هذه السلع . فقد تحمل هؤلاء السكان أهوال الحرب الأهلية وتدخل القوى الأجنبية وبالتالى لم يكونوا فى أوضاع نفسية أو اقتصادية تؤهلهم لتحمل أعباء معيشية

---

(٤) *V. Lenine, Notre Programme, **Oeuvres Completes**, Tome 4, Editions Sociales Internationales, Paris, 1958 - 1972, PP. 217 - 18.*

إضافية . وقد ساعدت هذه السياسة على تثبيت دعائم النظام الجديد وبالتالى إعطاء النظام الاشتراكى فرصة فى أن يتقدم . ولذلك فإن الحرص على المصالح الأساسية وبعيدة المدى قد يتطلب ، أحيانا ، التجاوز عن بعض الاعتبارات الآنية والمباشرة .

وتستلهم البيريسترويكا هذه المعانى ، « فهى تلبى المصالح الحيوية للشعب السوفيتى . وتهدف إلى نقل المجتمع إلى حدود جديدة ورفعه إلى مستوى نوعى جديد .. لقد واجهنا بالفعل مسألة العلاقة بين المصالح العاجلة والطويلة الأمد .. إن الطبقة العاملة السوفيتية فى مجموعها تؤيد تماما إعادة البناء ، وإنها على استعداد لتطويرها . ولأن تنجز فى الممارسة دورها لطبقة طليعية للمجتمع الاشتراكى » .

وبهذا يتضح أن البيريسترويكا برنامج للعمل السياسى تختلط فيه الممارسة بالنظرية ، وهى بهذا الشكل تأكيد للمنهج الماركسى ومتابعة للتقاليد الروسية الثورية كما أرساها لينين . ويظل هذان الجانبان ـ التوجه الماركسى والواقع الروسى ـ يتجاذبان تطلعات البيريسترويكا ، كما كانا دائما ، بدرجات متفاوتة ، محورى التأثير على أول تجربة اشتراكية فى العالم .

وقد احتلت التجربة الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى مكانا خاصا دائما فى نفوس الاشتراكيين فى مختلف دول العالم وخلبت لبهم . فهذه التجربة هى فى نهاية الأمر التجربة الأولى للاشتراكية ومن ثم فقد حرص معظم الاشتراكيين على الدفاع عنها وإن عارضوا بعض سياساتها أو ممارساتها . فها هو تروتسكى ، وهو فى ذروة عداوته لنظام ستالين ، يرى مع ذلك أن واجب الاشتراكيين فى العالم ـ على مختلف نزعاتهم ـ حماية النظام السوفيتى والدفاع عنه ، لأن « الاتحاد السوفيتى لم يزل ـ هكذا يرى تروتسكى ـ دولة العمال الثورية ، ومن واجب كافة الثوريين الدفاع عنها » .

ومع ذلك فإن هذه التجربة الاشتراكية الأولى لم تتخلص من الآثار العميقة التى أفرزها الطابع الروسى . فالاشتراكية لم تبدأ فى الدول الرأسمالية الأكثر تقدما مثل انجلترا أو ألمانيا ـ كما تنبأ ماركس ـ وإنما قامت فى روسيا القيصرية الأكثر تخلفا بتراثها الاقطاعى والاستبدادى . ومن هنا فقد انطبعت التجربة الاشتراكية الأولى بهذه النشأة الروسية . وبالمثل فان إدخال الاشتراكية فى روسيا القيصرية قد تم فى ظروف محلية ودولية عدائية فرضت حربا أهلية داخلية ثم تدخلا من جيوش أجنبية استدعت فرض نظام صارم لتوطيد دعائم السلطة الجديدة . وقد

فرضت هذه الظروف الخاصة طابعها على التجربة الاشتراكية كلها . وبالتالى فقد ظل التساؤل مطروحا دائما ، عند مناقشة هذه التجربة ـ حول ما يرجع إلى طبيعة النظام الماركسى وما يعتبر من ظروف النشأة الروسية الأولى . وهو واحد من تلك الإسئلة التى يمكن أن تظل مطروحة دون أن تجد إجابة قاطعة ونهائية .

وإذا كان الاتحاد السوفيتى يقف فى خريطة العالم على رأس معسكر يستقطب وراءه مايقرب من نصف سكان العالم ويواجه بالتالى معسكرا آخر تقوده الولايات المتحدة الأمريكية ويختلف عنه فى التوجه المذهبى ، فإنه يبدو أن حقائق التاريخ والجغرافيا كانت تعمل فى هذا الاتجاه . فالحضارة وقد خرجت ـ بشكل أو بآخر ـ من حول حوض البحر المتوسط بقيام الحضارات العظمى فى مصر واليونان وروما ، قد انتقلت شمالا إلى بحر الشمال والمحيط الاطلنطى مع الثورة الصناعية فى انجلترا ثم فى أوروبا ، وها هى تنتقل من جديد إلى المحيطات الكبرى ـ من الاطلنطى إلى المحيط الهادى ـ مع الولايات المتحدة وروسيا ـ وربما نعاصر الآن بزوغ اليابان ومعها دول الشرق الأقصى . ومن الطريف أن المؤرخ الفرنسى النابة توكوفيل قد تنبأ فى ١٨٣٥ ـ وعندما كان ماركس مازال يدرس فى جامعة بون ـ بأن روسيا وأمريكا مؤهلتان لقيادة العالم . « فهناك الآن شعبان عظيمان من شعوب العالم يتجهان ، ورغم بداياتهما المختلفة ، نحو هدف مماثل، وهذه هى الشعوب الروسية والانجلو امريكية». وإذا كان الأمريكيون « يعتمدون لتحقيق أهدافهم على المصلحة الخاصة وبالتالى يتركون حرية الأفراد دون تدخل » ، فإن الروس « يركزون السلطة داخل المجتمع بشكل خاص فى يد شخص واحد » ، ومع ذلك « ورغم البدايات المختلفة لكل من النظامين وطرقهما المتنوعة ، فإنه يبدو أن كلا منهما مدعو بنوع من القدر الإلهى المحتوم إلى أخذ مقدرات نصف العالم بين يديه »[٥] .

وأيا ما كان الأمر حول حقائق الجغرافيا والتاريخ وتنبؤات توكوفيل ، فما هى أهم الأفكار والتوجهات التى تتضمنها البيريسترويكا ؟ .

ذكرنا ـ فيما سبق ـ أن البيريسترويكا هى دعوة إلى التغيير الشامل فى مختلف جوانب الحياة الاجتماعية ، ولذلك فإن الكتاب يتعرض لعديد من المشاكل والقضايا الهامة . وليس من

---

(٥) *Alexis de Tocqueville,* ***De La Democratie en Amerique****. Tome l. Garnier Flammarion, Paris 1981, PP.-540-1*

السهل ــ كما أنه ليس من المفيد ــ أن نتناول فى هذا التقديم استعراضا لكل ــ أو حتى لأهم ــ ما تناوله الكتاب من أفكار . ومع ذلك فقد يكون من المناسب أن نحاول أن نستخلص ما يمكن أن يعتبر المحور الرئيسى للكتاب أو الرسالة الأساسية التى يسعى إليها مؤلف الكتاب . ومن الطبيعى أن يختلف النقاد حول ما يمكن أن يعتبروه القضية الأساسية فى الكتاب ، ومع هذا فلا بأس من المحاولة .

ويبدو لى أن رسالة الكتاب يمكن أن تختصر فى الدعوة إلى استيعاب حقائق العصر والتطلع إلى المستقبل . وفى هذا الخصوص فإن المؤلف قد اختار أمورا ثلاثة يمكن أن تعبر ، فى نظرى ، عن جوهر رسالة البيريسترويكا ، وهذه الأمور هى : حتمية التعاون الدولى ، وضرورة السعى إلى تحقيق الكفاءة الاقتصادية من ناحية والعمل على إضفاء مزيد من الديمقراطية من ناحية أخرى . وتمثل هذه الثلاثية ــ التعاون الدولى ، الكفاءة الاقتصادية ، الديمقراطية السياسية ــ كلا مترابطا ومتداخلا بحيث يستدعى كل عنصر منها العنصرين الآخرين ويعتمد عليهما . فالعالم ينتقل من مجرد علاقات بين الدول إلى نوع من الاقتصاد العالمى المترابط والمتداخل ، ولم يعد من المستطاع أن تقتلع بعض الدول نفسها من سياق العالم المتطور دون أن تلحق بنفسها أذى بالغا ، كما لا يمكن أن تستبعد إحدى الدول جزءا آخرا من العالم من الوجود كلية بالحرب أو بغيرها . فسكان العالم محكوم عليهم بالعيش سويا أو الموت الجماعى . وفى هذا العالم الواحد ــ رغم تنوعه ــ لا مناص لأية دولة ــ بله دولة عظمى ــ من الأخذ بناصية الكفاءة الاقتصادية وإلا تخلفت عن الركب . وإذا كانت الكفاءة الاقتصادية تتطلب تعديلا فى أساليب الإدارة وانفتاحا ومكاشفة ، فإن الشرط الأساسى لنجاحها هو توفير الديمقراطية فى مختلف مناحى الحياة . وهكذا فإن البيريسترويكا دعوة إلى التغيير فى مناخ العلاقات الدولية فى الخارج وفى أساليب الإدارة الاقتصادية وتوفير أسباب الديمقراطية السياسية فى الداخل . وهى أمور ــ كما أشرنا ــ مترابطة ومتكاملة .

رغم أن الحديث عن العالم والتعاون الدولى لم يأت إلا فى القسم الثانى من الكتاب ، فإننا نعتقد أن فهم ما جاء فى البيريسترويكا من أفكار يتضح بشكل أكبر فى ضوء نظرة جورباتشوف لحقائق العالم المعاصر . «ماذا يشبه هذا العالم الذى نعيش فيه جميعا ، عالم الأجيال الحالية من البشرية ؟ إنه متنوع ، ومتباين ودينامى ومشرب باتجاهات متعارضة وتناقضات حادة . إنه عالم تحولات اجتماعية جوهرية ، وثورة علمية وتكنولوجية شاملة

ومشاكل عالمية تتدهور ، مشاكل تتعلق بالبيئة ، وبالموارد الطبيعية ، الخ .. وتغيرات جذرية فى تكنولوجيا المعلومات . إنه عالم توجد فيه إمكانيات لم نسمع من قبل عنها للتطور والتقدم جنبا إلى جنب مع الفقر المدقع والتخلف ومعالم العصور الوسطى . إنه عالم حافل بـ « مجالات توتر » ضخمة .. لقد رأينا القضية الرئيسية ـ الاتجاه المتعاظم نحو الاعتماد المتبادل بين دول المجتمع العالمى . وهذه هى جدليات التطوير اليوم . فالعالم ـ المتناقض ، والمتنوع اجتماعيا وسياسيا ـ ولكنه مع ذلك مترابط ومتكامل لدرجة كبيرة » (جورباتشوف) .

وتمثل قضية العلاقة بين النظم الاجتماعية المختلفة وخاصة الحرب والسلام بين النظامين الاشتراكى والرأسمالى أحد القضايا الرئيسية فى الأدب الماركسى فضلا عن المواقف الرسمية للأحزاب الشيوعية . وكان تروتسكى قد ذهب ليس فقط إلى استحالة التعايش بين النظامين الرأسمالى والاشتراكى ، بل أيضا إلى استحالة قيام الاشتراكية بخصائصها الأصيلة فى دولة واحدة . ومن هنا فقد دعا تروتسكى إلى « الثورة الدائمة »[٦] ، وكان هذا هو أساس الخلاف العقائدى بينه وبين ستالين .

وإذا تركنا قضية الاشتراكية فى دولة واحدة أو الثورة الدائمة فى العالم ، فإن قضية الحرب والسلام بين النظامين الرأسمالى والاشتراكى شغلت الفكر الماركسى بوجه خاص منذ لينين . وبالنسبة إلى ماركس وانجلز فإن الحرب عندهما هى تعبير عن الصراع بين الطبقات أو بين الدول التى تمثل المصالح الاقتصادية للطبقات الغالبة . ومع ذلك فإن ماركس كان يرى أن مسئولية العمال هى مناهضة الحروب والوقوف ضدها . وقد ذهب انجلز إلى أنه نتيجة لتطور الأسلحة وتقدمها وارتفاع تكاليفها فإن الحرب سوف تصبح مستحيلة شأنها فى ذلك شأن العديد من الظواهر التاريخية التى تصل إلى أسباب زوالها نتيجة لعوامل تطورها[٧] . وسوف نرى أن جورباتشوف يصل إلى نفس النتيجة وبعبارات مماثلة .

ومع ذلك فإن دراسة لينين لظاهرة الإمبريالية ، وقد رأت أن الحرب حتمية نتيجة

(٦) *Leon Trotsky, **La Revolution Permanente**, Gallimard, idee, Paris, 1963.*

(٧) *".. the warship is being developed to a pitch of perfection which is making it both outrageously costly and unusable in war .:, like all other historical phenomenon, is being brought to destruction as a result of its own development".*

*Frederick Engles, **Herr Eugen Duhring's Revolution in Science (Anti-Duhring)**, The Marxist-Lennist Library, Lawrence & Wishatt Limited, Great Britain, 1934, p. 195.*

للتناقضات فى النظام الرأسمالى . حددت الموقف الرسمى للأحزاب الشيوعية بمذهب حتمية الحرب طالما استمر النظام الرأسمالى قائما . وقد ظلت أفكار لينين مهيمنة على التفكير السوفيتى الرسمى . وبالتالى على معظم الأحزاب الشيوعية . لما يقرب من أربعين عاما ، حتى قدم خروتشيف تقريره إلى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى فى ١٩٥٦ .

وقد كان للتقدم فى الأسلحة النووية أثر حاسم فى هذا الجدل . ففى خلال الفترة ١٩٥٤ ــ ١٩٥٥ قامت عدة مساجلات حول أثر هذه الأسلحة على مستقبل الحروب . ففى مارس ١٩٥٤ أعلن مالينكوف ــ رئيس الوزراء حينذاك ــ « بأن حربا جديدة تعنى نهاية الحضارة العالمية بالنظر إلى ما تحقق من تقدم فى الأساليب العسكرية الحديثة » . (البرافدا ١٣ مارس ١٩٥٤) . ولكنه لم يلبث أن يصرح « بأن حربا نووية لن تؤدى إلّا إلى زوال وانهيار النظام الرأسمالى » . (البرافدا ٢٧ أبريل ١٩٥٤) . [٨] . وجاء تقرير خروتشيف فى ١٩٥٦ حاسما فى هذا الصدد . « فالتعايش السلمى بين النظم الاجتماعية المختلفة أصبح ضروريا لمنع الحروب . فرغم أن النصر النهائى للاشتراكية لم يتحقق بعد ، ورغم استمرار النظام الرأسمالى فى جزء من العالم . فإنه تقوم الآن فرصة حقيقية لمنع الحروب العالمية من حياة الإنسانية » [٩] . وبطبيعة الأحوال فقد حرص خروتشيف على التأكيد بأن دعوته إلى التعايش السلمى إنما تستند إلى لينين الذى « صاغ لأول مرة فكرة التعايش السلمى » ، وإن « هذا المبدأ قد ورثناه عن لينين » . [١٠] . ومع ذلك فإنه من الصعب القول بأن لينين قد طور نظرية أو مبدأ بهذا المعنى ، رغم وجود عبارات له هنا أو هناك عن إمكانية التعايش بين الشعوب . وهذه واحدة من الأمثلة العديدة للدول ذات المذاهب الرسمية ــ دينية أو علمانية ــ والتى تحتاج دائما إلى تبرير سياساتها والبحث عن شرعيتها فى المصادر الأولية من الكتب والوثائق المقدسة . وقد عارضت الصين هذا المبدأ عند صدوره لأول مرة استنادا إلى وثائق أخرى من المصادر الأولية مما كان بداية للخلاف العقائدى مع الاتحاد السوفيتى . والآن ، فقد أصبح هذا المبدأ واحدا من

---

(٨) *Wolfgang Leonhard, **L'Ideologie Sovietique Contemporaine**. Tome II, Payot, Paris, 1965, p. 101*

(٩) التقرير المقدم من السكرتير العام للحزب إلى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى ، المرجع السابق ذكره مباشرة . (ص ٩٤) .

(١٠) خطاب خروتشيف أمام نادى الصحافة القومى فى واشنطن فى ١٦ سبتمبر ١٩٥٩ أثناء زيارته للولايات المتحدة الأمريكية .

حقائق السياسة الدولية المقبولة تماما فى الاتحاد السوفيتى كما فى الصين .

وقد تطور الأمر مع جورباتشوف . فلم نعد فقط بصدد تعايش سلمى وإمكانية منع الحروب . بل إن الحرب قد أصبحت مستحيلة « المبدأ الأساسى للنظرة السياسية الجديدة بسيط للغاية : إن الحرب النووية لايمكن أن تكون وسيلة للتوصل إلى أهداف سياسية أو اقتصادية أو أيدولوجية أو أية أهداف أخرى . وهذا الاستنتاج ثورى حقا ، لأنه يعنى استبعاد الأفكار التقليدية للحرب والسلام . إن الوظيفة الأساسية للحرب كانت على الدوام تبريرا للحرب وتفسيرا عقليا لها . ولكن الحرب النووية عديمة المعنى إنها غير عقلانية فلن يكون هناك منتصرون ومنهزمون فى نزاع نووى عالمى . فالحضارة العالمية سوف تفنى بشكل محتوم . إنها إنتحار وليست حربا بالمعنى التقليدى للكلمة » (جورباتشوف) .

كذلك لم يعد الأمر قاصرا على الاعتراف باستحالة الحروب بل أصبح المطلوب هو « التعاون » بين مختلف الدول نظرا لنشوء العديد من المشاكل الاجمالية ». هناك حقيقة أخرى فى عصرنا لا تقل وضوحا هى ظهور وتفاقم ما يسمى بالقضايا العالمية التى غدت كذلك حيوية بالنسبة لمصائر الحضارة . وأعنى بذلك قضايا المحافظة على الطبيعة ، والوضع المحرج للبيئة ، وحوض البحر والمحيطات ، وموارد كوكبنا التقليدية التى اتضح أنها ليست بلا حدود .. هذا هو عالمنا المعقد وإن لم يكن بغير أمل. ونحن نؤمن بالرأى القائل : « بأنه يمكن حل كل شىء ولكن يجب على كل منا أن يعيد التفكير فى دوره فى هذا العالم ويتصرف على نحو يتسم بالمسئولية » (جورباتشوف) . ومع استحالة الحرب وضرورة التعاون الدولى فإن استعادة القدرة الاقتصادية يصبح أمرا لا مناص منه . ومن هنا فقد « كانت أول مسألة طرحت تتعلق بتحسين الوضع الاقتصادى ووقف الاتجاهات غير المواتية فى هذا المجال ومحاولة عكسها » (جورباتشوف) .

وبهذا ننتقل من الحلقة الأولى فى حتمية التعاون الدولى إلى الحلقة الثانية من ثلاثيتنا فى ضرورة الإصلاح الاقتصادى ، وهى المهمة الثانية للبيريسترويكا . وفى هذا نجد أن جورباتشوف واجه مشكلة سوء الإدارة الاقتصادية فى الاتحاد السوفيتى فى جرأة وشجاعة يندر أن تتوافر فى حاكم يستعرض مشاكل النظام الذى يتولى حكمه ـ فما بالنا من حاكم فى دولة الحزب الواحد . « فى مرحلة معينة ـ وهو ما أصبح واضحا على وجه الخصوص فى النصف الأخير من السبعينيات ـ حدث شىء ما لاتفسير له لأول وهلة . لقد بدأت البلاد تفقد قوة اندفاعها . وتكرر الاخفاق الاقتصادى بدرجة أكبر . وبدأت الصعوبات تتراكم وتتدهور .

والمشاكل التى لاتجد حلا تتضاعف . وبدأت تظهر فى حياة مجتمعنا عناصر مانسميه بالركود وظواهر أخرى غريبة على الاشتراكية » (جورباتشوف) .

ومن الغريب أن مشكلة الإدارة الاقتصادية قد واجهت جميع الدول الاشتراكية وخاصة الماركسية بشكل أو بآخر. وغرابة الأمر ترجع أن هذه النظم تستند إلى نوع من التفسير الاقتصادى للتاريخ وبالتالى تعطى الاقتصاد أهمية بالغة فى النظرية . ولكنها تواجه فى التطبيق مشاكل غير قليلة نتيجة لسوء وضعف الإدارة الاقتصادية . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن دراسات ماركس وانجلز تعلقت فى الواقع بالمجتمعات الرأسمالية والتنبؤ باتجاه هذه المجتمعات نحو الاشتراكية ، ولم تتضمن هذه الدراسات أى تحليل لما يمكن أن يكون عليه الوضع بعد تحقيق الثورة الاشتراكية وزوال الرأسمالية . وهكذا يمكن القول بأن الاشتراكيين قد فوجئوا بالفعل بإدارة الاقتصاد الاشتراكى دون أن تتوافر لديهم دراسات كافية لمثل هذه الأوضاع الجديدة . كذلك فإن ارتياب الاشتراكيين من نظريات الاقتصاد البورجوازى واعتناقهم نظرية « العمل فى القيمة » لريكادو ـ متابعة لماركس ـ قد أفقدهم القدرة فى كثير من الأحوال على استخدام العديد من أدوات التحليل الاقتصادى الحدى والحديث . حقا لم يكن ذلك أمر كافة الاقتصاديين الماركسيين حيث ظهر عدد قليل ـ ولكنه متميز ـ من الاقتصاديين الذين استطاعوا التوفيق بين أساليب التحليل الاقتصادى الحديث وبين الأفكار الماركسية ـ مثل أوسكار لانجه ـ ولكن ظل هذا العبء التاريخى المتمثل فى الارتياب من النظرية الاقتصادية « البورجوازية » قائما . وها هى روزا لوكسمبرج تصرح بأن « تحقيق الاشتراكية يعنى نهاية الاقتصاد كعلم »[11] .

وأخيرا فقد فرضت ظروف نشأة الاشتراكية فى روسيا وما صادفته من جو عدائى ـ ضرورة الالتجاء إلى نوع من اقتصاد الحرب للتصنيع السريع ومواجهة مخاطر التدخل الأجنبى . وقد فرضت هذه الأوضاع الالتجاء إلى الاساليب الادارية والكمية لادارة الاقتصاد على نحو مركزى (التخطيط المركزى) . وبقدر ماكانت هذه الأوضاع مقبولة ومبررة فى فترة التصنيع الأولى ، بقدر ما أصبحت عبئا على تقدم الاقتصاد بعد أن تطور الاقتصاد وازداد تعقيدا وتنوعا .

وقد ظلت علاقة النظام الاشتراكى بالنظرية الاقتصادية محل مناقشة بين الاقتصاديين من

---

(١١) مشار إلى هذه العبارة فى ***Socialist Economics****, edited by Alex Nove and D.M. Nuti, Penguin Modern Economics Books, 1972. p. 10.*

مختلف النزعات ـ فثار فى وقت من الأوقات جدل فى الأوساط الغربية حول مدى إمكان تحقيق الكفاءة الاقتصادية فى ظل النظام الاشتراكى وبعد إلغاء الملكية الخاصة واستبعاد دور السوق . فأشار الاقتصادى الجرمانى مايزس إلى استحالة تحقيق ذلك نظريا فى ظل نظام اشتراكى ، حتى جاء النمساوى هايك والانجليزى روبنز مبينين أنه وإن كان ذلك ممكنا نظريا فإنه من الناحية العملية أمر بالغ الصعوبة لأنه يحتاج إلى حل الملايين من المعادلات الرياضية (١٢) . ويرجع الفضل للاقتصادى البولندى أوسكار لانجه بوجه خاص لبيان أن النظام الاشتراكى ـ شأنه شأن النظام الرأسمالى ـ يمكن أن يحقق الكفاءة الاقتصادية نظريا وعمليا بالالتجاء إلى استخدام نظام الأسعار ، وأن أجهزة التخطيط تستطيع أن تستخدم الأسعار عن طريق التجربة والخطأ لتحقيق الكفاءة الاقتصادية على نحو لا يكاد يختلف عن أوضاع السوق فى ظل الرأسمالية . بل ذهب لانجه إلى أن الأسعار التى تصل إليها أجهزة التخطيط ستكون أقرب إلى أسعار سوق المنافسة الكاملة ، الأمر الذى يندر أن يتوافر للأسواق الرأسمالية (١٣) . وقد كان إسهام لانجه ذا أهمية بالغة على المستوى النظرى حيث أنه بيَّن أن النظام الاشتراكى لا يتعارض مع الأخذ بنوع من اللامركزية فى الادارة الاقتصادية من ناحية وأن تحليل النظرية الاقتصادية البورجوازية يمكن أن يكون مفيدا للاشتراكية من ناحية أخرى ورغم هذا ، فقد ظل المذهب الرسمى لنظرية قيمة العمل التى اعتنقها ماركس قيدا شديدا على تطور النظرية الاقتصادية الاشتراكية فضلا عن تأثيره على أسلوب الادارة نفسه .

وعندما اكتشف الغرب تحليل «البرامج الخطية» الرياضى بنشر دانتزج Dantzig ورقة أساسية فى الموضوع فى ١٩٤٧ ، تبين بعدها أن استخدام هذا الأسلوب فى النظرية الاقتصادية يوضح أن هناك علاقة ثابتة بين توزيع الموارد على الاستخدامات المختلفة وبين ظهور أثمان لها . وبذلك فقد ظهرت نظرية الأثمان كنتيجة منطقية أو رياضية لتوزيع أو تخصيص الموارد . فكل توزيع للموارد على استخدامات معينة يقابله نظام للأثمان أو القيم ، وبالتالى فإن أى تخصيص مركزى للموارد يمكن أن يتحقق بشكل لا مركزى عن طريق استخدام هذه الأثمان أو القيم .

---

(١٢) *Von Mises, Economic Calculation in the Socialist Commonwealth, in* ***Collectivist Economic Planning****. edited Von Hayek, Routledge, London, 1935.*

(١٣) *Oscar Lange, Fred Taylor,* ***On the Economic Theory of Socialism****. University of Minnesota, 1938, P. 98.*

وقد أوضحت الدراسات أن هذه الأثمان لا تعدو أن تكون أثمان اسواق المنافسة الكاملة (١٤) وقد أعطى هذا الاثبات الرياضي للعلاقة بين توزيع الموارد من ناحية وظهور الأثمان من ناحية أخرى دفعة قوية لدور الأثمان فى النظرية الاقتصادية . وقد اتضح فيما بعد أنه سبق للعالم الرياضي الروسي ـ كانتوروفيتش ـ أن توصل إلى نفس النظرية فى وقت سابق ـ ١٩٣٩ ـ (١٥) ، ولكن لم يساعد على انتشارها فى ذلك الحين أنها لا تتفق تماما مع نظرية القيمة فى العمل بقدر ما تعكس ندرة الموارد كما تظهرها نظريات التحليل الحدى فى الاقتصاديات البورجوازية . وهكذا فقد كان الموقف المذهبي من نظرية القيمة عائقا أمام تقدم النظرية الاقتصادية الاشتراكية بصفة عامة فضلا عن تكريس أساليب الإدارة المركزية .

وبشكل عام ، فقد كان المذهب الرسمى للحزب يرتاب كثيرا فى فكرة استخدام القيم أو الأثمان كمؤشر لتوجيه أو تخصيص الموارد ، فهذه هى مهمة التخطيط المركزى وليس للسوق أو الأسعار دور يذكر فى هذا الخصوص . وقد أشار ستالين صراحة ـ فى أواخر أيامه ـ إلى أن قانون القيمة « لا يمكن أن يقوم بدور الموجه أو المنظم لاستخدامات الموارد بين الفروع المختلفة فى النظام الاشتراكى (١٦) » .

وقد أدت سيطرة الأسلوب الكمى فى الادارة المركزية إلى إهدار مسألة الكفاءة فى الادارة الاقتصادية مما جعل المطالبة بالاصلاح الاقتصادى على رأس قوائم الاصلاح للسياسة السوفيتية منذ نهاية عصر ستالين . وعندما فتح خروتشيف الباب لنقد النظام القائم ، بعد المؤتمر

---

(١٤) *R. Dorfman, P. Samuelson, R. Solow.* ***Linean Programming and Economic Analysis****. McGraw Hill, 1958, P. 174.*

(١٥) *L.V. Kantorovitch,* ***'Matematicheskie metody organizatii planirovania proizvodstva****. Lenningrad, 1939.*

مشار إليه فى *T.C. Koopmans;* ***Three Essays on the State of Economic Science'****. McGraw Hill, 1957, P. 68.*

وعندما أعاد كانتوروفيتش نشر هذه الأفكار الاقتصادية من جديد كان عليه أن يبرر تقدير قيم لعناصر أخرى غير العمل مثل الريع بالقول بأن هذا يتفق مع قيمة العمل فى « المتوسط » !

Kantorovich, ***The Best Use of Economic Resources****. Moscow, Pergammon Press, 1959, PP. 29-300.*

(١٦) *".. In brief, there can be no doubt that under our present socialist conditions of production, the law of value cannot be a regulator of the production of labour distributed among the various branches of production". J. Stalin,* ***Remarks on Economic Questions****, 1951, in,* ***The Socialist Economies. op. cit. p. 51****.*

العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي ، استرعى انتباه الأوساط الغربية في ذلك الوقت ما نشرته جريدة البرافدا عن أفكار الاقتصادى الروسي ليبرمان . وقد أكد ليبرمان على أهمية إعطاء المشروعات حوافز مباشرة دون الزامهم بخطط كمية للإنتاج مع اتاحة الفرصة لاقامة علاقات مباشرة بين المنتجين والمستهلكين ـ وهو التعبير المسموح به آنذاك للحديث عن اقتصاد السوق ـ والأخذ بمؤشرات الربح بدلا من الأهداف الكمية للانتاج(١٧) كذلك طالب كوسيجين ـ رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ـ بشيء من ذلك فى تقريره أمام اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي فى ١٩٦٥ .

وعندما يأتي جورباتشوف مطالبا باستخدام المؤشرات الاقتصادية بدلا من الأهداف الكمية ، فإنه يؤكد استمرار خط المطالبة بالاصلاح الاقتصادى وإعادة الاعتراف بأهمية السوق وعناصر التكلفة فى إتخاذ القرارات الاقتصادية . «إن جوهر ما نخطط لعمله فى جميع أنحاء البلاد يتمثل فى أن تستبدل بأساليب يهيمن عليها الطابع الإدارى، أساليب يهيمن عليها الطابع الاقتصادى فى الأساس . ومن الواضح تماما للقيادة السوفيتية أنه لابد وأن يكون لدينا حساب اقتصادى كامل .. ستكون لدينا فترة انتقال معقدة للغاية ، تتعايش خلالها كل من الدواليب القديمة وتلك التى أدخلت حديثا . بيد أن الحساب الاقتصادى الكامل سيطبق دون تأخير. وسنتابع هذا المسار بنشاط مكتسبين الخبرة العملية . وسوف نجرب ونختبر كل شيء (جورباتشوف) .

وينبغي أن نتذكر هنا أن الجدل حول المركزية أو اللامركزية فى الادارة الاقتصادية ، كما أن الحديث عن التخطيط الكمى أو استخدام مؤشرات السوق والأرباح ـ كل هذا يدور فى الواقع حول الرغبة فى تحجيم الدور الذى تقوم به الأجهزة السياسية والبيروقراطية فى الادارة الاقتصادية. فالحديث عن الاصلاح الاقتصادى والخضوع لمقتضيات السوق لايعدو أن يكون دعوة إلى الحد من الدور الذى تقوم به عناصر البيروقراطية وأجهزة الحزب فى توجيه موارد الاقتصاد .

ومن هنا فإن قضية الاصلاح الاقتصادى ترتبط بقضية الديمقراطية والتعددية . فمناقشة الدور الذى تقوم به الأجهزة وعناصر البيروقراطية فى إدارة الاقتصاد القومى لن تلبث أن تطرح

(١٧) *E.G. Liberman, the Plan, Profit and Bonuses, Pravda 9, Sept. 1962, in,* ***Socialist Economics. op.cit. p. 307.***

قضية اتخاذ القرارات بشكل عام ومدى المشاركة فيها . ورغم أن المطالبة بالديمقراطية السياسية وضرورة تعدد الآراء والمشاركة السياسية قضية مطروحة بذاتها . فإنها وثيقة الصلة بأسلوب الادارة الاقتصادية . وهكذا تظهر الحلقة الثالثة من ثلاثيتنا . وهى المطالبة بمزيد من الاجراءات الديمقراطية فى مختلف نواحى الحياة السوفيتية . وربما تمثل هذه الحلقة أهم وأخطر عناصر البيريسترويكا .

وقد كان تسلط العناصر البيروقراطية على مقدرات الدولة ـ وليس فقط الادارة الاقتصادية ـ وهو أحد نقاط الخلاف الرئيسية بين الحزب الشيوعى الرسمى وبين الماركسيين المنشقين على التجربة السوفيتية . وربما تعتبر انتقادات تروتسكى فى هذا الصدد من أخطر ما وجه لنظام الحكم فى الاتحاد السوفيتى بعد إقامة الاشتراكية . ولا تخفى أهمية تروتسكى باعتباره أحد اثنين ـ مع لينين ـ كان لهما الفضل الأول فى إنجاح ثورة أكتوبر . ومع ذلك فإن بعض هذه الآراء ربما تعكس ـ أيضا ـ مرارة الصراع الشخصى وخاصة بعد استبعاده من السلطة ونفيه خارج البلاد . وقد كان أحد أهم الانتقادات التى وجهها إلى النظام السوفيتى هو سيطرة البيروقراطية على الدولة والحزب(١٨) فقد استولت البيروقراطية على كل شىء «فاستولت على الحزب البلشفى ، وهزمت برنامج لينين الذى كان يرى أن أكبر المخاطر تتمثل فى تحول أجهزة الدولة من خدمة المجتمع إلى سادة له . وقد حققت البيروقراطية هذه الانتصارات ليس بقوة الحجة أو سلامة الفكر وإنما نتيجة لثقلها الاجتماعى» وبذلك تحولت «الديمقراطية المركزية إلى البيروقراطية المركزية» . حقا لقد انتقلت ملكية عناصر الانتاج إلى الدولة ولكن «الدولة نفسها أصبحت مملوكة للبيروقراطية» . وتمتعت عناصر البيروقراطية بالتالى بالعديد من المزايا نتيجة «لسوء استخدام السلطة» . وأصبحت تحتفظ لنفسها بنصيب مبالغ فيه من الدخل القومى لا يتناسب مع دورها مما أضفى عليها صفة «التطفل الاجتماعى» . وبذلك لم يكن من الغريب أن يتحول النظام السياسى فى الاتحاد السوفيتى إلى «نظام شمولى فى طبيعته وذلك حتى قبل أن يظهر النظام الشمولى فى المانيا النازية»

وقد كانت سيطرة البيروقراطية والأجهزة الادارية على الثورة الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى هى الثغرة التى استند إليها الأمريكى جيمس برنهام لتفسير اتفاق الاتحاد السوفيتى مع المانيا النازية على معاهدة عدم اعتداء قبل الحرب العالمية مباشرة فى ١٩٣٨ . وقد أصابت هذه

(١٨) *Leon Trotsky*, ***The Revolution Betrayed***. *Pioneer Publisher, New York, 1945*.

الاتفاقية التى عقدت بين دولة اشتراكية ثورية (الاتحاد السوفيتى) وأخرى فاشية يمينية (المانيا النازية) عددا كبيرا من اليساريين خارج الاتحاد السوفيتى بالاحباط والألم. وقد حاول برنهام - وهو ماركسى من الجناح التروتسكى - أن يعتمد فى تفسيره لهذا التطور على المنهج الماركسى ذاته فى التطور التاريخى [١٩]. فإذا كان الصراع الطبقى هو الذى يحكم التطور التاريخى، فإن الصراع فى الرأسمالية بين طبقة العمال والطبقة البورجوازية لم يحسم لصالح طبقة العمال بعد قيام الثورة الاشتراكية وإنما فى صالح طبقة جديدة هى فئة المديرين. وليس فى هذا، فى نظر برنهام، ما يزعج، ففى النظرية الماركسية ذاتها ما يدعم هذا النظر. ففى ظل النظام الاقطاعى كان الصراع الطبقى بين طبقة مهضومة هى الفلاحين وطبقة مستغلة هى أمراء الاقطاع والنبلاء. وعندما قضى على الاقطاع نتيجة لهذا الصراع، فإنه لم يحسم - مع قيام الرأسمالية - لصالح الفلاحين وإنما لصالح طبقة جديدة ناشئة هى البورجوازية. وهكذا وجد برنهام مخرجا نظريا، فى نظره، للتناقض بين تحالف دولة يسارية مع دولة فاشية. فعنده أنه فى كل من الدولتين سيطرت طبقة المديرين والفنيين على الحكم، وبالتالى كان من السهل عليهما أن يصلا إلى اتفاق لتقارب مفاهيمهما.

ولم يخجل جورباتشوف من أن يعترف بأن مثل هذه الانتقادات لم تكن كلها مبالغات وإنما وجدت أمثلة متعددة فى الحياه السوفيتية. «ففى محاولة لاصلاح الوضع بشكل ما، بدأ دفع مكافآت كبيرة لا محل لها، أى، غير مكتسبة فى الحقيقة. وأدخلت كافة أنواع الحوافز غير المستحقة تحت ضغط النقص (فى الموارد) مما أدى فى مرحلة لاحقة إلى أسلوب التقارير المنمقة لمجرد الكسب. وزادت المواقف الطفيلية. وبدأت مكانة العمل الواعى العالى النوعية تتراجع وغدت عقلية «المساواة فى الأجور» منتشرة.. وكانت دعاية النجاح - الحقيقى أو المدعى - تحظى باليد العليا. وجرى تشجيع المديح والخضوع، وتجاهل احتياجات وآراء الناس العاديين.. وحدث انفصال بين القول والفعل، مما حفز على السلبية العامة وعدم تصديق الشعارات التى تعلن. وكان من الطبيعى تماما أن يؤدى هذا الوضع إلى فجوة فى المصداقية، وأصبح كل ما يعلن من فوق المنابر ويطبع فى الصحف والكتب الدراسية مثار شك وتساؤل. وبدأ الفساد يسرى فى الأخلاق العامة.. وغالبا ما حل العبث السياسى والتوزيع الواسع النطاق للجوائز والألقاب والمكافآت محل الاهتمام الحقيقى بالشعب.. وبذلت المحاولات لتغطية

(١٩) *James Burnham, **The Managerial Revolution.** Penguin Books, 1945.*

كل ذلك بحملات صاخبة ومشروعات طنانة واحتفالات بذكرى مناسبات عديدة على المستوى المركزى والمحلى وكان عالم الواقع اليومى وعالم الرخاء الزائف يتباعدان أكثر فأكثر» . «ومن الواضح الآن لكل امرئ أنه فى ظل النظام الحالى للاقتصاد . لا يمكن لأى جهاز وزارى أو إدارى . مهما كان كفؤا ، أن يأخذ على عاتقه كل مسألة بشكل مطلق .. وهم يدركون أن هذا العمل يفيد القضية ، ولكن رغم ذلك ، توضع المصالح الديوانية الضيقة ومصالح المجموعة فى بعض الأحيان فوق مصالح الشعب» (جورباتشوف) .

ولا تقتصر سيطرة البيروقراطية على التأثير على الادارة الاقتصادية بل إنها عادة ما تنعكس على شكل السلطة السياسية القائمة وكثيرا ما ارتبطت بأشكال الحكم الشمولى . ومن هنا فقد رأى البعض أنه ما لم تتوافر ديمقراطية سياسية حقيقية ، فإنه يخشى أن تؤدى سيطرة الدولة على الموارد الاقتصادية إلى قيام نوع من رأسمالية الدولة أو نوع من الحكم الشمولى . ويرى البعض أن هذا الأسلوب فى النظام السياسى والاقتصادى يقترب من نظم الحكم القائمة فى دول فاشية مثل المانيا النازية أو ايطاليا الفاشية قبل الحرب . ونجد مثل هذه الآراء ليس فقط بين مفكرين يمينيين[٢٠] . وإنما أيضا بين عدد من المفكرين من اليسار[٢١] .

ويدرك جورباتشوف أن الاصلاحات التى يطالب بها ستظل مجرد دعوات فى الهواء ما لم يصاحب ذلك ديمقراطية واسعة وحقيقية . «إن إعادة بناء حياتنا يعنى فهم الضرورة الموضوعية للتجديد والتشريع . وقد نشأت هذه الضرورة فى قلب مجتمعنا . ويكمن جوهر البيريسترويكا فى حقيقة أنها توحد الاشتراكية مع الديمقراطية» . «إننا نريد مزيدا من الاشتراكية وبالتالى مزيدا من الديمقراطية» . «ونحن على قناعة بأن ربط المصالح الشخصية بالاشتراكية لايزال يشكل المشكلة الرئيسية . ونحن نشير بالطبع إلى المصالح الشخصية بالمعنى العريض وليس بمجرد المعنى المادى .. إن العقد الاجتماعى وما يرتبط به من ديمقراطية هو على وجه التحديد ما يدعم إحساس الشخص بأنه مواطن وسيد» . (جورباتشوف) .

وبطبيعة الأحوال فإن الحديث عن الديمقراطية يعنى أشياء مختلفة لمختلف الأفراد

---

(٢٠) *Raymon Aron,* ***Dix-Huit lecons sur la societe industrielle.*** *Gallimard, Idee, Paris 1962;* ***Democratie et Totalitarisme.*** *Idee, Paris 1965.*

(٢١) *Rudolf Hilferding, State Capitalism or Totalitarian State Economy,* ***The Modern Review.*** *June 1947, in, W. Mills,* ***op.cit.***

والاتجاهات . ومع ذلك فإن إعادة طرح قضية الديمقراطية ـ وبهذه القوة ـ على بساط البحث يعيد للاشتراكية ، والماركسية بصفة خاصة ، حيويتها الأولى. فالاشتراكية ليست مناقضة للديمقراطية ولا ينبغى أن تكون . وإذا كانت الحركة الاشتراكية الغربية قد تفرقت منذ نهاية القرن الماضى وبداية القرن الحالى ، حول قضية الديمقراطية ، بين الاتجاه الاصلاحى (الاشتراكية الديمقراطية)[٢٢] والاتجاه الثورى ، فهل آن الأوان لكى تعود للاشتراكية وحدتها وتتصالح من جديد مع الديمقراطية ؟.


وعندما تطرح البيرسترويكا هذه القضايا ـ وغيرها ـ للمناقشة ، فإنها تطرح فى الواقع أهم ما يشغل الفكر الانسانى من قضايا . ولم يعرض جورباتشوف آراءه ومقترحاته باعتبارها حلولا نهائية بقدر ما هى تساؤلات ودعوة للتفكير . وهو لا يتردد فى نقد الأوضاع القائمة فى بلده ، ولكنه لا ينطلق من موقف تبريرى أو اعتذارى . على العكس ، فإنه يصدر فى كل ما يقول أو يقترح عن الإيمان الكامل بالاشتراكية ومستقبلها ، وهو لذلك يدعو إلى تطويرها . فليس أخطر على الحياة من الجمود والتعصب . كذلك لا ينبغى أن ننسى أن جورباتشوف هو قبل كل شىء رجل سياسة ورجل دولة ، ولذلك فهو لا يقدم بحثا فى الفلسفة أو دراسة فى النظرية ، وإنمايعرض برنامجا للعمل ، أو بعبارة أدق برنامجا لاعادة التفكير السياسى .

يبقى فى النهاية سؤال هام . هل تنجح جهود جورباتشوف فى مهمة التغيير أم تظل محاولة أخرى تضاف إلى محاولات سابقة ؟ الزمن وحده قادر على الإجابة على هذا التساؤل . ولكن جورباتشوف قد نجح بالفعل فى إدخال كلمة جديدة إلى قاموس الحياة السياسية فى العالم أجمع . فقد دخلت البيريسترويكا والجلاسنوست إلى لغات الشعوب المختلفة ، فأضيفت بذلك إلى كلمات روسية أخرى اقتحمت علينا حياتنا مثل الانتلجنسيا والسوفيت والبولشوى . ولم تعد البيريسترويكا مجرد كلمة جديدة أضيفت إلى قاموس التخاطب ، بل إننا نشعر الآن ـ أكثر من أى وقت مضى ـ بحاجتنا إلى بيريسترويكا جديدة للعلاقات الدولية وأخرى لنظمنا الداخلية فى وطننا العربى .

كم نحن فى حاجة إلى بيريسترويكا عربية !

حازم الببلاوى
القاهرة ـ مصر الجديدة
يونيو ١٩٨٨

(٢٢) *E. Bernstein, **Evolutionary Socialism.** B. W. Huebsh, New York, 1911.*


Bibliotheca Alexandrina
06994865
7.085
4
6613
988a